

الفصل الثامن والعشرون الشكر

من أهم وأعلى وأوجب المنازل الإيمانية منزلة الشكر، بل إن جميع مقامات الإيمان تندرج فيها حتى المحبة والرضا والتوكل وغير ذلك، فإن الشكر لا يصح إلا بعد حصولها، وتالله ليس لخواص أولياء الله وأهل القرب منه سبيل أرفع من الشكر ولا أعلى، إن الشكر نصف الإيمان، وأساس المزيد، وسبيل حراسة النعم وحفظها وزيادتها، وإن أقل ما يجب على العبد تجاه هذه النعم المتواترة المتكاثرة أن يشكر ربه ويحمده جَلَّ جَلَّالُهُ، وإذا رأيت أن إيمانك لا يزداد فارجع إلى الشكر وراجع حالك فيه فسوف تجد تقصيرًا، فَالْهَجْ حِينَئِذٍ بِحَمْدِ اللَّهِ وَشُكْرِهِ تَزِدُّدٌ إِيْمَانًا.

حقيقة الشكر

يقول ابن منظور رَحِمَهُ اللَّهُ: الشكر: عرفان الإحسان ونشره وهو مأخوذ من قولك: شكرت الإبل تشكر إذا أصابت مرعى فسمنت عليه، والشكران خلاف النكران^(١).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: أصل الشكر في وضع اللسان ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهورًا بَيِّنًا، يقال: شكرت الدابة تشكر شكرًا على وَزْنِ سَمْنٍ تَسْمَنُ سِمْنًا إذا ظهر عليها أثر العلف، ودابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تأكل وتعطى من العلف، وفي صحيح مسلم: «حتى إن الدواب لتشكر من لحومهم»^(٢)، أي لتسمن من كثرة ما تأكل منها، وكذلك حقيقة الشكر في العبودية هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة^(٣).

(١) «لسان العرب» (٤/ ٢٣٠٥).

(٢) رواه مسلم برقم [٢٩٣٦]، والمقصود لحوم يأجوج ومأجوج بعد هلاكهم.

(٣) «تهذيب المدارج» ص [٣٨٤].

قواعد الشكر

الشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحب له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره، فهذه الخمس هي أساس الشكر وبناءؤه عليها فتمتى عدم منها واحدة؛ اختل من قواعد الشكر قاعدة، وكل من تكلم في الشكر وحده فكلامه إليها يرجع وعليها يدور فقليل: حده الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع، وقيل: الثناء على المحسن بذكر إحسانه.

وقيل: هو عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره والثناء عليه.

وقال الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة^(١).

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكوراً إلا بمجموعها أحدها: اعترافه بنعمة الله عليه، والثاني: الثناء عليه بها، والثالث: الاستعانة بها على مرضاته^(٢).

فضائل الشكر

مما سبق يتبين أن الشكر يتنظم الاعتراف بالنعمة باطناً والتحدث بها ظاهراً واستعمالها في شكر المنعم، ولهذا الشكر فضائل عظيمة تحث عليه وتدفع إليه وتدعو إلى تحقيقه واستدامته ومنها:

أولاً - أمر الله به ونهى عن ضده:

قال الله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال عز وجل: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح

(١) المصدر السابق باختصار [٣٨٤-٣٨٥].

(٢) «عده الصابرين» [١٨٨-١٨٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِتْيَاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر الله لم يعبد وحده، كما أن من شكره فقد عبده وأتى بما أمر به، ويدل أيضًا على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة، كما أن الكفر ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة (١).

ثانيًا - الشكر أساس المزيد:

النعم تزداد وتكثر وتتوالى وتعظم على العبد بقدر شكره لربه؛ فمن أراد زيادة النعم فليكثر من الشكر وليلهج به، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [الأنعام: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي آذنكم وأعلمكم بوعده لكم، ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه، وقوله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها وقوله: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ أي كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها قوله: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرهم (٢).

ثالثًا - الشكر سبيل النجاة:

لقد قرن الله سبحانه الشكر بالإيمان وبين سبحانه أنه لا غرض له في عذاب الخلق إذا شكروه وآمنوا، فقال الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، وأخبر ربنا عز وجل أنه أنجى الشاكرين المؤمنين وأهلك الظالمين الكافرين من قوم لوط، فقال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي إِذْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [٢٤] نِعْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿[القصص: ٣٣-٣٥]،

(١) «تيسير الكريم الرحمن» [٧٩].

(٢) «المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير» [٦٩٥].

﴿ نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ أي إنعاماً منا وهو علة لـ ﴿ نجينا ﴾، ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ أي فأطاع ربه وانتهى إلى أمره ونهيه، والشكر صرف العبد جميع ما أنعم عليه إلى ما خلق لأجله (١).

رابعاً - الشكر مرضاة الله وسبب لمحبتة:

أخبر الله العليم الحكيم سبحانه أنه يرضى لعباده الشكر، ويحبهم لهم ومنهم، فقال تعالى: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧]، وإذا حمد العبد ربه بعد طعامه وشرابه فإن الله تعالى يحب ويرضى عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها» (٢).

كان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء كما قال تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢]، في مقابلة شكره بالحمد.

إن المؤمن يعيش حياته بين نعمة ومحنة، والواجب عند السراء والنعم الشكر، والواجب عند الضراء والمحن الصبر، ومن كان كذلك فإنه المؤمن حقاً وأمره كله خير له، فعن صهيب بن سنان الرومي رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» (٣).

خامساً - الشكر حال أنبياء الله وأقرب الخلق إليه:

أولئك الأنبياء والرسل الذين اصطفاهم الله ليكونوا قدوة للعالمين وأسوة للسائرين المهتدين، قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْدَرُهُ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، كان هؤلاء

(١) «تفسير القاسمي» (٨/ ٥٥١) ط دار الحديث.

(٢) رواه مسلم برقم [٢٧٣٤].

(٣) رواه مسلم برقم [٢٩٩٩].

الأنبياء أعظم الناس شكرًا لله ولزأماً على من أراد الاهتداء بهم أن يكثر من شكر ربه عزَّ وجلَّ قال تعالى عن خليله إبراهيم عليه صلوات الله وسلامه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ ﴿النَّحْلُ: ١٢٠-١٢١﴾، وقال الله تعالى عن نوح صلوات الله وسلامه عليه: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾، وقال الله عن سليمان صلوات الله وسلامه عليه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ فَنَبَسَمَ صَاحِبُكَ مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿النَّمْلُ: ١٨-١٩﴾.

يقول ابن القيم رحمه الله: وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾، وقسم الناس إلى شكور وكفور فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى في الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾، وقال نبيه سليمان: ﴿هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

وهذا كثير في القرآن، يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنَ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾، والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان فلم ينقلبوا على أعقابهم، وعلق سبحانه المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره، وقد وقف سبحانه كثيرًا من الجزاء على المشيئة كقوله: ﴿فَسَوْفَ يُعْزِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ ﴿التَّوْبَةُ: ٢٨﴾، وقوله في الإجابة: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ ﴿الْأَنْعَامُ: ٤١﴾، وقوله في الرزق: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴿البَقَرَةُ: ٢١٢﴾، وفي المغفرة: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿الْعَنْكَرَانِ: ١٢٩﴾، وفي التوبة: ﴿وَيَتُوبُ

اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ﴿[التَّوْبَةُ: ١٥]، وأطلق جزاء الشكر إطلاقاً حيث ذكر قوله: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [الْعَنْكَرَان: ١٤٥]، وقوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [الْعَنْكَرَان: ١٤٤]، ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأعلاها؛ جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه فقال: ﴿ثُمَّ لَا تَبْتَغُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٧].

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره بل هو الغاية التي خلق عبده لأجلها: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النَّحْل: ٧٨]، فهذه غاية الخلق، وغاية الأمر فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الْعَنْكَرَان: ١٢٣] ^(١).

معنى الحمد والفرق بينه وبين الشكر

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ولا يحيط بعددها غيره أحد في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم من نعيم العيش من غير استحقاق منهم لذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخراً، وقال: «الحمد لله» ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه فكأنه قال: قولوا الحمد لله وقد قيل: إن القائل «الحمد لله» ثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وقوله «الشكر لله» ثناء عليه بنعمه وأياديه ^(٢).

(١) «عدة الصابرين» باختصار [١٥١-١٥٤] ط دار الريان.

(٢) «تفسير الطبري» (١/١٢٧)، ص [١٣٥].

ويقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: والتحقيق أن بينهما عمومًا وخصوصًا، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه، وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقع عليه؛ لأنه يكون بالقول والفعل والنية وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية^(١).

قلت: ومعنى هذا أن الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح كما قال تعالى: ﴿اعْمَلُواْ آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سَبَأ: ١٣]، ولكنه لا يكون إلا في مقابلة إحسان فيكون الشكر على هذا الإحسان، أما الحمد فيكون بالقلب واللسان فقط ولكنه يكون في مقابلة إحسان ويكون في عدم وجود الإحسان فالحمد أعم من هذه الناحية والله تعالى أعلم.

فضائل الحمد

للحمد فضائل كثيرة جدًا في سنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن هذه الفضائل:

أولاً - الله يحب الحمد:

ربنا عزَّ وجلَّ حميد يحب الحمد، ويجب من يحمده، ولقد حمد نفسه قبل أن يحمده الحامدون، والحمد: هو الإخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له.

عن الأسود بن سريع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كنت شاعرًا فأتيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت: يا رسول الله إني مدحت ربي بمحامد قال: «أما إن ربك يحب الحمد»^(٢).

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من شيء أحب إلى الله من الحمد»^(٣).

وكما أنه سبحانه يحب أن يُعبد فإنه يحب أن يُمَجَّد وَيُحْمَدَ.

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤٢/١) ط التوفيقية.

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» [٨٥٩]، وحسنه الألباني في «صحيح الأدب» [٦٦٠].

(٣) رواه أبو يعلى [٤٢٥٦] وحسنه الألباني في «الصحيحة» [١٧٩٥].

ثانيًا - أفضل عباد الله الحامدون؛

خير عباد الله وأحبهم إلى الله الذين يكثرون من عبادته وحمده وشكره والثناء عليه، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن أفضل عباد الله يوم القيامة الحامدون»^(١)، فأكثر من حمد ربك في السراء والضراء فإن الحمد خير كله.

ثالثًا - الحمد أفضل الدعاء؛

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»^(٢)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: فسمى الحمد دعاء وهو ثناء محض؛ لأن الحمد متضمن الحب والثناء والحب أعلى أنواع الطلب، فالحامد طالب للمحبوب، فهو أحق أن يسمى داعيًا من السائل الطالب، فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب، فهو دعاء حقيقة بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه^(٣).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أنعم الله على عبدٍ نعمة فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ»^(٤).

مواطن يتأكد فيها استحباب الحمد

من هذه المواطن: عند الطعام والشراب، عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا رفع مائدته قال: «الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا»^(٥)، وعن معاذ بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من

(١) رواه الطبري [٢٥٤] وصححه الألباني في «صحيح الجامع» [١٥٧١].

(٢) رواه الترمذي [٣٣٨٣] وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» [٢٦٩٤].

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٤/٨) ط العيكان.

(٤) رواه ابن ماجه [٣٨٠٥] وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» [٣٠٦٧].

(٥) رواه البخاري برقم [٥٤٥٨].

أكل طعاماً ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة؛ غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١).

ومن هذه المواطن التي يتأكد فيها استحباب الحمد: عند رؤية ما يسره وما يكرهه فعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا رأى ما يحب قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»، وإذا رأى ما يكره قال: «الحمد لله على كل حال»^(٢).

ومنها: عند رؤية أهل البلاء، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من رأى مبتلىً فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني على كثير من خلق تفضيلاً؛ لم يصبه ذلك البلاء»^(٣).

ومنها: عند الاستيقاظ من النوم فعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا استيقظ من النوم قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»^(٤).

ومن هذه المواطن: عند الصباح والمساء فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا أصبح أحدكم فليقل: أصبحت أثني عليك حمداً وأشهد أن لا إله إلا الله، ثلاثاً، وإذا أمسى فليقل مثل ذلك»^(٥).

ومنها: عند وقت السحر من آخر الليل، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا كان في سفر وأسحر يقول: «سَمِعَ سامع بحمد الله وحسن بلائه علينا، ربنا صاحبنا وأفضل علينا، عائذاً بالله من النار»^(٦)، ومعنى «سَمِعَ سامع» أي شهد شاهد على حمدنا لله تعالى على نعمه وحسن بلائه.

(١) رواه أبو داود [٤٠٢٣] وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢/ ٥٠٢).

(٢) رواه ابن ماجه [٣٨٠٣]، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» [٣٠٨١].

(٣) رواه الترمذي [٣٤٣٢]، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» [٦٢٤٨].

(٤) رواه البخاري [٦٣١٤].

(٥) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة [٥٧١] وحسنه الوادعي في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» [١٣٢٠].

(٦) رواه مسلم برقم [٢٧١٨].

ومن هذه المواطن: عند فقد الولد، فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد» ^(١)، إلى غير ذلك من المواطن التي يتأكد فيها الحمد ومن أراد المزيد فليراجع كتب الأذكار.

بستان الشاكرين

مع الشاكرين نعيش هذه اللحظات؛ ونذكر من مواقفهم ما يكون قدوة وأسوة، وأول من نبدأ بالحديث عنه إمام المتقين وسيد الشاكرين وصاحب لواء الحمد والشفاعة العظمى يوم الدين؛ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كان بحق إمام الشاكرين واستجاب أعظم استجابة لقول ربه عَزَّجَلَّ له: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦]، هاهو صلوات ربي وسلامه عليه يصلي الليل ويديم القيام بين يدي ربه حتى تنفطر قدماه شكراً لربه عَزَّجَلَّ، كما في الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً؟» ^(٢).

ومن شدة حرصه على تحقيق الشكر لله وقيامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به كان يدعو الله بذلك، فقد كان من دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رب اجعلني لك شاكراً» ^(٣)، وكان إذا جاءه أمرٌ يسره خر ساجداً لله عَزَّجَلَّ شاكراً له سبحانه، فعن أبي بكرة نافع بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا جاءه أمر سرور أو بشر به خرَّ ساجداً شاكراً لله ^(٤).

(١) رواه الترمذي [١٠٢١]، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٥٢٠/١).

(٢) رواه البخاري برقم [٤٨٣٧]، ومسلم برقم [٢٨٢٠].

(٣) رواه أبو داود برقم [١٥١٠]، وابن ماجه برقم [٣٨٣٠]، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه»

[٣٠٨٨].

(٤) رواه أبو داود برقم [٢٧٧٤]، وابن ماجه برقم [١٣٩٤]، وحسنه الألباني في «المشكاة» [١٤٩٤].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ﴿صَت﴾ وقال: «سجدها داود توبة ونسجدها شكراً»^(١)، فسجود الشكر وسجود التلاوة كلاهما مستحب، ولا يشترط لهما الوضوء على الراجح، وصام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صيام شكر اتباعاً لنبي الله موسى صلوات الله وسلامه عليه حينما أنجاه الله تعالى من عدوه فرعون، ففي الصحيحين والمسند واللفظ لأحمد من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مرَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأُناس من اليهود قد صاموا يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا الصوم؟» قالوا: هذا اليوم الذي نجَّى الله فيه موسى وبني إسرائيل من الغرق وأغرق فرعون، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي فصامه نوح وموسى شكراً لله تعالى فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إننا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم، فأمر أصحابه بالصوم»^(٢).

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا استيقظ من نومه حمد الله، وإذا انتهى من طعامه حمد الله تعالى، فكان يقول إذا هبَّ من نومه: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»^(٣)، وكان يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحمد لله الذي عافاني في جسدي وردَّ عليَّ روحي وأذن لي بذكره»^(٤).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي»^(٥).

وقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي ليلة في جوف الليل فوقعت يد أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على قدميه وهما منصوبتان وهو يقول في سجوده: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(٦).

(١) رواه النسائي (٢/ ١٥٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» [٣٦٨٢].

(٢) رواه البخاري برقم [٢٤]، ومسلم برقم [١٢٨]، كلاهما مختصراً، وأحمد (٣٥٩/ ٢) برقم [٨٧٠٢].

(٣) رواه البخاري برقم [٧٣٩٤].

(٤) رواه أبو داود [٥٠٥٠]، والترمذي [٣٤٠١]، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» [٧١٦].

(٥) رواه مسلم برقم [٢٧١٥].

(٦) رواه مسلم برقم [٤٨٦].

وعلم معاذًا الشكر وسؤال الإعانة من الله بعد كل صلاة فقال: «يا معاذ، إني أحبك، فلا تدع أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل: «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت»^(٢).

وهذا الصديق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحمده في صلاته حينما يأمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يثبت في مكانه لكي يصلي بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمامًا، كما في صحيح البخاري عن سهل ابن سعد أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذهب إلى بني عمرو بن عوف ليصلح بينهم، فحانت الصلاة فجاء المؤذن إلى أبي بكر فقال: أتصلي لنا فأقيم؟ قال: نعم، فصلى أبو بكر، فجاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والناس في الصلاة، فتخلص حتى وقف في الصف فصفق الناس - وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاته - فلما أكثر الناس التصفيق التفت، فرأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأشار إليه رسول الله أن امكث مكانك، فرفع أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يديه فحمد الله على ما أمره به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك، ثم استأخر أبو بكر حتى استوى في الصف وتقدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصلَّى، فلما انصرف قال: «يا أبا بكر، ما منعك أن تثبت إذ أمرتك؟»، فقال: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣)، وكان الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في دعائه: أسألك تمام النعمة في الأشياء كلها والشكر لك

(١) رواه أبو داود برقم [١٥٢٢]، والنسائي برقم [١٣٠٣]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٧٩٦٩].

(٢) رواه البخاري برقم [٧٤٩٩]، ومسلم برقم [٧٦٩].

(٣) رواه البخاري برقم [٦٨٤].

عليها حتى ترضى وبعد الرضا، والخيرة في جميع ما تكون فيه الخيرة بجميع ميسور الأمور كلها لا معسورها يا كريم (١).

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أبتليت ببلاء إلا كان الله تعالى عليّ فيه أربع نعم: إذا لم يكن في ديني، وإذا لم يكن أعظم، وإذا لم أحرم الرضا به، وإذا أرجو الثواب عليه (٢)، وهذا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما رأى ذا الثُدَيَّة في الخوارج أسود مخدج مقطوع اليد عند العضد مثل شكل حلمة ثدي المرأة، وأنه علامة وآية ومصدق وعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلي أنه سيقاتل الخوارج وفيهم هذا المخدج، ولما انتهت المعركة أمرهم فبحثوا في جثث القتلى وأخرجوه فبحثوا فلم يجدوه، فَأَصْرَّ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ متيقناً من صدق الموعد فوجدوا كومه من القتلى ووجدوه تحتها، فأخرجوه فإذا هو على صفة ونعت كما وصفه النبي صلوات الله وسلامه عليه فسجد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شكراً (٣).

وهذا كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما تخلف عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك وهجره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة خمسين يوماً، حتى نزلت توبة الله عليه، يقول كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يحدث عن ذلك: فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر، فخررت ساجداً وعرفت أنه قد جاء فرج (٤).

ولما جاء إلى الحسن البصري خبر موت الحجاج بن يوسف خر ساجداً شكر الله تعالى، وقال: اللهم قد أمته فأذهب عنا سنته.

(١) «عدة الصابرين» ص [١٦٨].

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» ص [٢٩٢].

(٣) «المصنف» لعبد الرزاق برقم [٥٩٦٢].

(٤) رواه البخاري برقم [٤٤١٨]، ومسلم برقم [٢٧٦٩].

وكان الحسن البصري يقول: أكثروا من ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال: ﴿وَأَمَّا نِعْمَةَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [التين: ١١]، والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته، فإن ذلك شكرها بلسان الحال.

وقال مطرف بن عبد الله: لأن أعافى فأشكر أحب إليّ من أن ابتلى فأصبر.

وقال فضيل بن عياض: كان يقال: من عرف نعمة الله بقلبه وحده بلسانه لم يستتم له ذلك حتى يرى الزيادة، لقول الله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٧]، وقال: من شكر النعمة أن يحدث بها.

وقد ذم الله سبحانه الكنود، وهو الذي لا يشكر نعمه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العلق: ٦]، قال الحسن: يعد المصائب وينسى النعم (١).

يا أيها الظالم في فعله والظلم مردود على من ظلم

إلى متى وحتى متى تشكو المصيبات وتنس النعم

رأى بكر بن عبد الله المزني حملاً عليه حمله وهو يقول: الحمد لله، أستغفر الله قال: فانتظرت حتى وضع ما على ظهره وقلت له: أما تحسن غير هذا؟ قال: بلى أحسن خيراً كثيراً أقرأ كتاب الله، غير أن العبد بين نعمة وذنب فأحمد الله على نعمه السابغة وأستغفره لذنوبي فقلت: الحمال أفقه من بكر!

وقال شريح: ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله فيها ثلاث نعم؛ ألا تكون كانت في دينه، وألا تكون أعظم مما كانت، وأنها لا بد كائنة فقد كانت.

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: ما قلب عمر بن عبد العزيز بصره إلى نعمة أنعم الله بها عليه إلا قال: اللهم إني أعوذ بك من أن أبذل نعمتك كفرًا، وأن أكفرها بعد أن عرفتھا، وأن أنساها ولا أثني بها.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو علي قال: كنت أسمع جارًا لي يقول في الليل: يا إلهي خيرك عليّ نازل وشري إليك صاعد، كم من ملك كريم قد صعد إليك مني بعمل قبيح، وأنت مع غناك عني تتحبب إليّ بالنعمة، وأنا مع فقري إليك وفاقتي أتممت إليك بالمعاصي، وأنت في ذلك تجربني وتسترني وترزقني.

وكان أبو المغيرة إذا قيل له: كيف أصبحت يا أبا محمد؟ قال: أصبحنا مغرقين في النعمة، عاجزين عن الشكر، يتحبب إلينا ربنا وهو غني عنا، ونتممت إليه ونحن إليه محتاجون.

قال يونس بن عبيد: قال رجل لأبي تيممة: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بين نعمتين: ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد، ومودة قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي.

وكان الحسن إذا ابتدأ حديثه يقول: الحمد لله، اللهم ربنا لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرجت عنا، لك الحمد بالإسلام والقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافة، كبت عدونا، وبسطت رزقنا، وأظهرت أمننا، وجمعت فرقنا، وأحسنت معافاتنا، ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا، فلك الحمد على ذلك حمدًا كثيرًا، لك الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا، في قديم أو حديث، أو سر أو علانية، أو خاصة أو عامة، أو حي أو ميت، أو شاهد أو غائب، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت.

وكتب ابن السَّمَّك إلى محمد بن الحسن حين وَلِيَ القضاء بالرَّقَّة: أما بعد، فلتكن التقوى من بالك على كل حال، وخف الله من كل نعمة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بها، وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها، فعفى الله عنك كلما ضيعت من شكر أو ركبت من ذنب أو قصرت من حق.

ومر الربيع بن أبي راشد برجل به زمانة فجلس يحمد الله ويبكي، قيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت أهل الجنة وأهل النار فشبهت أهل الجنة بأهل العافية وأهل النار بأهل البلاء فذلك الذي أبكاني.

وجاء رجل إلى يونس بن عبيد يشكو ضيق حاله فقال له يونس: أيسرك ببصرك مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيديك مائة ألف؟ قال: لا، قال: فبرجليك مائة ألف؟ قال: لا، قال: فذكره نعم الله عليه، فقال يونس: أرى عندك مئات الألوف وأنت تشكو الحاجة (١).

قال سلام بن أبي مطيع: دخلت على مريض أعوده فإذا هو يئن فقلت له: اذكر المطروحين على الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعتة يقول لنفسه: اذكر المطروحين في الطريق اذكر من لا مأوى له ولا له من يخدمه.

قال بكر بن عبد الله: قلت لأخ لي: أوصني فقال: ما أدري ما أقول غير أنه ينبغي لهذا العبد أن لا يفتر من الحمد والاستغفار، فإن ابن آدم بين نعمة وذنوب، ولا تصلح النعمة إلا بالحمد، والشكر ولا يصلح الذنب إلا بالتوبة والاستغفار.

وقال عبد العزيز بن أبي رواد: رأيت في يد محمد بن واسع قرحة فكأنه رأى ما شق عليّ منها قال لي: أترى ماذا الله عليّ في هذه القرحة من نعمة حين لم يجعلها في صدقي، ولا طرف لساني ولا على طرف ذكري، فهانت عليّ قرحته.

وكان بعض السلف يقول: اللهم ما أصبح بنا من نعمة أو عافية أو كرامة في دين أو دنيا جرت علينا فيما مضى وهي جارية علينا فيما بقي فإنها منك وحدك لا شريك لك،

فلك الحمد بذلك علينا، ولك المن ولك الفضل ولك الحمد عدد ما أنعمت به علينا وعلى جميع خلقك، لا إله إلا أنت.

وكتب بعض العلماء إلى أخ له: أما بعد، فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه، فما ندرى أيهما نشكر، أجميل ما يستر أم قبيح ما ستر؟!

وذكر ابن أبي الدنيا أن محارب بن دثار كان يقوم بالليل ويرفع صوته أحياناً: أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد، وأنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد، وأنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد، وأنا الصعلوك الذي مؤلته فلك الحمد، وأنا الأعزب الذي زوجته فلك الحمد، وأنا الساغب الذي أشبعته فلك الحمد، وأنا العاري الذي كسوته فلك الحمد، وأنا المسافر الذي صاحبه فلك الحمد، وأنا الغائب الذي رددته فلك الحمد، وأنا الراجل الذي حملته فلك الحمد، وأنا المريض الذي شفيته فلك الحمد، وأنا السائل الذي أعطيته فلك الحمد، وأنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد، ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً.

قال أبو عثمان: شكر العامة على المطعم والملبس، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعاني.

وحبس السلطان رجلاً فأرسل إليه صاحبه: اشكر الله، فضرب فأرسل إليه: اشكر الله فجيء بمحبوس مجوسي مبطون فقيّد وجعل حلقة من قيده في رجله، وحلقة في رجل المذكور فكان المجوسي يقوم بالليل مرات، فيحتاج الرجل أن يقف على رأسه حتى يفرغ فكتب إليه صاحبه: اشكر الله فقال له: إلى متى تقول: اشكر الله وأي بلاء فوق هذا؟! فقال: لو وضع الزنار الذي في وسطه في وسطك كما وضع القيد الذي في رجله في رجلك ماذا كنت تصنع؟! فاشكر الله.

ودخل رجل على سهل بن عبد الله فقال: اللص دخل داري وأخذ متاعي فقال: اشكر الله فلو دخل اللص قلبك -وهو الشيطان- وأفسد عليك التوحيد ماذا كنت تصنع؟^(١).

معرفة النعمة

مما يستجلب الشكر ويدعو إليه أن يفكر العبد ويتأمل في عظمة وكثرة نعم الله عليه، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ وَمَا يَكُفُّمْ مِنْ نِعْمَةِ فِئْتِنِ اللَّهِ ﴾ [الْجَلَّ: ٥٣]، فالله هو الذي خلقك وأوجدك من عدم، وخلق لك عقلاً لتعقل وقلباً لتفهم وتؤمن، وخلق لك سمعاً وبصراً ولساناً وغير ذلك من الجوارح، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الْجَلَّ: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۖ (٨) وَلِسَانًا وَشَفْهَتَيْنِ ۖ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [الْبَلَد: ٨-١٠]، وسخر الله لك كل ما في هذا الكون، فأنزل من السماء ماء، وأنبث من الأرض نباتاً تأكل منه، وسخر لك الأنعام لتركبها ولتأكل من لحومها وألبانها، وسخر البحر يحمل السفن ويستخرج منه الأسماك واللؤلؤ وغير ذلك من المنافع، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۖ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۖ (٣٣) وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۗ إِنِ الْإِنسَانُ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [الْأَنْعَام: ٣٢-٣٤]، وآتاك الله بيتاً تسكنه، وزوجة تسكن إليها، وطمأنينة في بيتك، وصحة في بدنك وغيرك حُرْم من كل هذا، ألا تشكر ربك الذي وهبك وأعطاك؟! قال الله جَلَّالَهُ: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ﴾ [الْجَلَّ: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْوَادِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ [الْجَلَّ: ٧٢].

إنك لو فكرت في حجم النعم التي أنعم الله بها عليك لطاش عقلك، أستغفر الله بل لأذعن عقلك بالعبودية والذل لمن له كل الفضل عليك، وما بك من خير ونعمة وحياة

فهي منه سبحانه وبحمده، تأمل نعمة الهواء لو كان الهواء يباع كيف يكون الحال؟! تأمل في نعمة المياه لو انعدمت من حياتك كيف تكون؟! قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [الْقَمَرَان: ٢٠]، وأعظم النعم وأجلها وأكبرها نعمة الإيمان فلقد هداك ربك وجعلك موحدًا مسلمًا وغيرك غارق في أوحال الكفر وقذارة الشرك، كم من الناس ضلوا عن الحق وعموا عنه، فمن يهود ونصارى وملحدين وزنادقة وبوذيين وغير ذلك من الطوائف التي حادت عن نور الإسلام وهم في الآخرة من الخاسرين، الذين لا يخرجون من نار الجحيم، انظر كم أنعم عليك ربك وهداك من كل هذا الضلال وعرفك طريق الجنة وسبيل السعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [التَّوْبَة: ٨٥]، ثم انظر كيف سلّمك ربك من البدع في الدين والانحرافات في العقيدة، فلست رافضيًا، ولا معتزليًا، ولا خارجيًا، ولا تنتمي إلى غير ذلك من فرق المبتدعة الذين ضلوا عن سواء السبيل، فاللهم لك الحمد على ما هديتنا ولك الحمد على ما أنعمت به علينا، ولك الحمد على ما منحتنا من سابغ فضلك وواسع كرمك وعظيم جودك، ولك الحمد ربنا على حمدنا لك.

ما يُرْغَبُ فِي الشُّكْرِ وَيُؤَدَّى إِلَيْهِ

مما يستجلب الشكر ويدفع العبد إليه ويجعله له حالًا دائمًا مطالعة النعم وتعدادها وتذكرها دائمًا، ومن ذلك النظر إلى أهل البلاء فمن نظر إلى المرضى وشدة آلامهم وطول أبنهم عرف نعمة الصحة وشكرها، ومن تأمل في حال المسجونين والمدينين عرف نعمة الحرية والسلامة من الديون وشكر الله على ذلك، ومن رأى كفيفًا لا يرى أو أشل لا يتحرك أو عقيماً لا يلد أو والدًا عقه ولده أو بيتاً تمزقت أو أصر أهله وتشرّد أفرادهم عرف نعم الله في كل ذلك وشكرها.

ومن ذلك أن ينظر إلى من هو دونه وأقل منه في الدنيا فإن ذلك جدير بتعظيم النعمة ومعرفة قدرها والحذر من مَلَأِهَا، فإن ملال النعم مؤذن بزوالها عياداً بالله، ولقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله» (١).

ومن ذلك أن يعلم العبد أنه مسئول بين يدي ربه يوم القيامة عن هذه النعم ومحاسب عليها، فإذا علم ذلك قام بالشكر مخافة أن يحاسب، وقد قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، ومن ذلك معرفة فضائل الشكر، وأنه سبيل لزيادة النعم وحفظها وحراستها وغير ذلك مما تقدم ذكره، فاللهم يا ربنا زدنا من نعمك ولا تنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وألهمنا شكر نعمتك ودوام ذكرك.



الخاتمة

أي أخي، ليس للعبد مستراح إلا تحت شجرة طوبى، ولا للمحب قرار إلا يوم المزيد، يا منفقاً بضاعة العمر في مخالفة حبيبه والبعد منه ليس في أعدائك أضر عليك من نفسك.

العمر بآخره والعمل بخاتمته، من أحدث قبل السلام بطل ما مضى من صلاته، ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعاً، ومن أساء في آخر عمره لقي ربه بذلك الوجه.

لا يكرم العبد نفسه بمثل إهانتها، ولا يعزها بمثل ذلها، ولا يريحها بمثل تعبها، ولا يشبعها بمثل جوعها، ولا يؤمنها بمثل خوفها، ولا يؤنسها بمثل وحشتها من كل ما سوى فاطرها وبارئها^(١).

أي أخي! من اجتهد وَجَدَ وَجَدَ، وليس من سهر كمن رقد، والفضائل تحتاج إلى وثبة أسد.

إذا القرشي لم يشبه قريشاً بفعلهم الذي بزّ الضعالا
فتيس من تيس بني تميم بنّي العبلات أحسن منه حالا

قيمتك عملك فيها، وقدرك بقدر ما قدمت لدينك، مكانتك عند ربك على قدر تعظيمك له ونصرتك لدينه وشرعه، ليس الكلام ولا الألقاب تغني عنك شيئاً، وإنما العمل هو كنزك ورصيدك الذي تلقى به ربك، كُفَّ لسانك، وابدأ في مجاهدة نفسك وإصلاحها واستعن بالله، واصدق مع الله، فالله أكرم من أن يخيب من قصده أو أن يرد من دعاه، فاصدق في عبوديتك لربك ودع عنك مدح الناس أو ذمهم أو ما خلعه عليك من ألقاب فإنها لن تفيدك شيئاً.

(١) من كلام ابن القيم في «الفوائد».

والمسك ما قد شفا عنه ذاته لا ما غدا ينفعه بئعه

إذا أقبل العبد بقلبه إلى الله أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه وجعل في قلوبهم وده وحبه، وإذا صدق العبد في عمل وجد حلاوته قبل أن يعمل، وإذا أخلص فيه وجد حلاوته أثناء عمله، وعاقبته وثمرته عند لقاء ربه، فهيّا تزود من الآن لهذا السفر البعيد الذي سيكون منتهاه إما إلى جنة وإما إلى نار، ولكل من الدارين وارد، فعلى أيهما ورودك ولأيهما تعمل؟! اتعب اليوم في طاعة ربك واثبت لتجني ثمرة عملك في الآخرة، حقق العبودية لربك تعيش حياتك سعيداً حميداً، ويكون مآلك جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

تعال نعاهد ربنا على أن نصدق في العبودية له وأن نقلع عن كل ما لا يرضيه من ذنب وإثم وخلق ذميم.

هيا هيا، ارحل عن الأكوان إلى خالقها، إياك أن تشغلك العوائق والخلائق عن الخالق جَلَّ جَلَّالُهُ.

إنك إن اشتغلت بنفسك عن الله حُجِبْتَ، وإن أتبعْتَ نفسك هواها طُرِدْتَ، وإن هذبتها وزكيتها بطاعة ربك قُرِبْتَ ووجدت قرة العين ولذة الروح وطيب العيش وطمأنينة القلب وراحة الضمير ونعيم الحياة، فهيّا أقبل، ما يمنعك؟!

أكثر من الذكر والاستغفار يغفر ذنبك ويزداد رزقك ويصلح حالك، قال تعالى:

﴿ قُلْتُ أَتَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۖ ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۖ ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيءُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ۖ ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح: ١٠-١٢]، وبالاستغفار ترحم، قال تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦]، الاستغفار يزيدك قوة في بدنك، قال هود لقومه: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

الاستغفار أمان لك من العذاب فاستغفر الله تنج من عذابه، قال تعالى: ﴿ وَمَا

كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وأكثر من ذكر الله في كل وقت وفي كل حين، في سفرك وحضرك، في صحتك ومرضك، في فراغك وشغلك، وفي طريقك إلى عملك، فالفلاح كل الفلاح في كثرة ذكر الله بالقلب واللسان، قال الله جَلَّ جَلَّالُهُ: ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وإذا ذكرت الله ذكرك ويا لها والله من كرامة، الله جَلَّ جَلَّالُهُ يذكرك إذا ذكرته، قال الله تعالى: ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وأكثر من النوافل من صلاة وصيام وعمره فإنها سبيل حب الله لك، وإذا أحبك ربك فقد سعدت السعادة الخالدة في الدنيا والآخرة، جالس العلماء والصالحين واستفد من هديهم قبل لفظهم، واحترس من مجالسة أرباب الغفلة فإن الطباع تسرق وأنت لا تدري، إن مخالطة الغافلين سقم القلب وحمى الروح، والسلامة أسلم.

احترس من المعاصي واصبر عنها في الدنيا فإن الراحة العظمى في الجنة، ليكن شعارك في هذه الدار: إلهي إذا تشاغل الناس عنك بدينامهم فإن كل همتي مرضاتك، وكل بغيتي جنتك والنظر إلى وجهك الكريم، لله در أقوام عقلوا معنى الحياة وفهموا مراد الله فعاشوا حياتهم كل حياتهم طاعة لربهم، وكان حالهم كما قال القائل:

عزفوا القلوب عن الشواغل كلها قد فرغوها من سوى الرحمن
حركاتهم وهمومهم وعزومهم لله لا للخلق والشيطان

أيها العاقل قم من رقدتك، وانفض من غفلتك، وأنفق نفسك وأنفاسك قربة لربك جَلَّ جَلَّالُهُ فليست الدنيا بدار مقام، وكل لذاتها خدع وأوهام، هيا لتكن كل همتك بلوغ دار السلام، تزود بالتقوى فإنها خير زاد تلقى به ربك جَلَّ جَلَّالُهُ: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّامَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٨].

اللهم خذ بنواصينا إلى ما يرضيك عنا، وتقبل أعمالنا منا، وعلى طاعتك أعنا ومن شرور خلقك سلمنا، رب كن لنا ولا تكن علينا، امكر لنا ولا تمكر بنا، اهدنا ويسر الهدى لنا.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك، اللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار، اللهم طهر قلوبنا، وزك نفوسنا، وحصن فروجنا، واسل سخيمة صدورنا، اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها، اللهم استر عيوبنا، وسدد ألسنتنا، وامح خطيئتنا، وارفع درجاتنا، وتول أمرنا وأحسن خلاصنا، واختم بالباقيات الصالحات أعمالنا، ولا تتوفنا إلا وأنت راضٍ عنا.

اللهم يا ولي الإسلام وأهله، ثبتنا عليه حتى نلقاك به، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ .
اللهم تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

وصل الله وسلم وبارك على النبي محمد وآله وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين

